عندما يصبح التفكير بالمستحيل هو الخلاص :

صدام حسين وسياسة «الغريق لايخشى المطر»

ان تصريحات رئيس اركان الجيش العراقي الاخيرة، بان جيش العراق هو الرابع في العالم، ولغة التهديد التي اعتمدها صدام حسين في خطابه الاخير بالذكرى الثالثة لحرب الخليج، حيث قال:

((. . ليعلم جميع الاشرار بان شعب العراق وقيادته ومن موقع المسؤولية والصبر لن يحولوا الحكمة ضعف وقنوط واذا كنا قد صبرنا على استمرار الحصار الذي فرض بارادة الاشرار وصبرنا على استمرار تحليق طائراتهم في جنوب عراقنا العزيز العريق، مخترقين اجواءه ومانعين طائراتنا من التحليق جنوب خط العرض 32 منذ ردح من الزمن بمساعدة اشرار من السعودية والكويت واستمرار العبث في شمال وطننا الحبيب وفي حياة شعبنا العزيز شمال خط العرض 36 رغم انكشاف طبيعة النوايا وتهافت الحجج فاننا لن نتخلى عن شعبنا في شمال الوطن، ولن نقف مكتوفي الايدي تجاه استمرار الحصار واتتهاك قدسية السيادة لاجوائنا في جنوب العراق.

والى كل الاشرار نكرر القول اليهم جميعا اسيادا وتابعين فنقول عليهم ان لايتوهموا مرة اخرى ويخطئوا التقدير والحسابات الصحيحة وليتعلموا من دروس الماضي القريب ويستوعبوا معانيها على اسس غير ما يرغبون من شر وليتقوا الله ويتذكروا ان ارادته سبحانه فوق ارادتهم وارادة شياطينهم والا فان عاقبة المجرمين (العين بالعين والسن بالسن والجروح قصاص)).

ان هذه العبارات تذكرنا بتصريحات صدام حسين في مطلع عام 1990 عندما تحدث عن" قطع الاعناق ولا قطع الارزاق"، اشارة الى الكويت ودولة الامارات، وما اعقب ذلك من غزو الكويت.

ان هذه التصريحات تعكس تطورا في غاية الاهمية في نهج وتفكير بغداد، والخطاب -بدون شك- موجه للخارج اكثر منه للاستهلاك الداخلي. وقد تناولته الصحافة الاسرائيلية قبل غيرها بالدراسة، في وقت لم نقرأ بعد اي تحليل عراقي معارض بهذا الصدد.

ان التلويح بسياسة العصا قد يعني توصل صدام حسين الى قناعة بفشل سياسة الاستجابة والتعاون مع الامم المتحدة وامريكا التي انتهجها منذ استلام بيل كلنتون الرئاسة الامريكية في مطلع 1992، بامل التطبيع وفك الحصار عنه. كما قد تعكس شكوك صدام حسين في قدرة نظامه على الصبر طويلا بوجه الحصار والمقاطعة وحالة اللاحرب واللاتطبيع التي يبدو انها اصبحت السياسة المعتمدة لامريكا وحلفائها.

امام هذه الحالة قد تجد بغداد ان هناك حاجة لنهج سياسي جديد، ياخذ شكل مغامرة سياسية وعسكرية تقلب الاوضاع في المنطقة وتخلط الاوراق مجددا لتفتح المجال لحلول افضل بالنسبة للعراق.

ومنطق بغداد في هذا الشأن هو التالي:

- الغريق لايخشى المطر، فالعراق لم يعد مهدداً بخسارة اكثر مما خسر لحد الان.

- ان صدام قد اثبت قدرته على المجازفة وتاريخه يشهد بذلك، وعليه هناك احتمال ان يؤخذ تهديده بالجدية اللازمة فيحرك أجراءات انهاء الحصار والعقوبات، دون الحاجة الى مواجهة اخرى.

- لاخشية من تمرد شعبي داخلي، بل ان اية مغامرة خارجية قد تجد التجاوب الواسع من الشعب العراقي بأمل الخلاص من حالة الجمود واستمرار الحصار والمعاناة. خاصة وان المعارضة العراقية لم تستطع لحد الان من خلق بديل مقبول يلتف حوله الشارع العراقي.

- لجوء واشنطن للضربة الجوية سبق وان استخدم في حرب الخليج الثانية، وكان فعالا في تحقيق انسحاب الجيش العراقي من الكويت، ولكنه غير كاف لاسقاط النظام خاصة وان واشنطن غير مستعدة لتحمل مسؤولية التدخل العسكري المباشر واحتلال اراض عراقية بهدف أسقاط النظام، لما في ذلك من توريط لها وتحميلها مسؤولية ادارة البلاد بما في ذلك حفظ الامن وتأمين الغذاء. واذا فشل صدام حسين في استدراج القوات الامريكية داخل العراق في الحرب السابقة فانه يأمل في تحقيقه في المرة الثانية.

- ان طريقة تفكير صدام حسين، المسكونة بهاجس الفروسية تميل الى الدخول في مغامرة تشهد له بالمواجهة الجريئة بدلاً من السقوط نتيجة التآكل من الداخل.

- ان العراق لايزال يملك قدرة عسكرية كافية لتهديد دول الخليج والسعودية، والارقام تؤكد وجود اكثر من 28 فرقة عسكرية، اي مايزيد عن 400 الف جندي عراقي تحت السلاح.

- بأستثناء لجوء امريكا الى عمل عسكري، ليس بمقدور واشنطن الأتيان بمزيد من العقوبات ضد بغداد.

- ان قدرة امريكا في اقامة تحالف عسكري وسياسي مماثل لذلك الذي حققته في حرب الخليج الثانية اضعف مما كانت عليه بكثير، خاصة وان هناك اختلافات عميقة في الرؤية والمصلحة بين العديد من دول التحالف السابقة.

- ان خيبة الامال بـ "النظام العالمي الجديد" قد تجعل من مغامرة جديدة لصدام حسين امراً مبرراً، لابل قد يكون مقبولا على الصعيد العربي والاسلامي.

- ان تجربة الصومال وبوسنيا اكدت محدودية اثر التدخل الامريكي، ومدى تأثير الرأي العام الامريكي الداخلي على قرار الادارة، مما كرس عزوف امريكا عن التورط العسكري الخارجي، وان حساسية كلينتون تجاه الراى العام الامريكي تجعله اكثر حذراً في التورط عسكرياً.

- العراق بحاجة الى ورقة جديدة لمقايضتها من اجل فك الحصار وانهاء العقوبات، وهذه الورقة تقع خارج حدوده، ومن جملة الاوراق هي :

1-النفط العربي: اي عمل من شأنه توقف ضخ النفط الخليجي والسعودي ولو بشكل محدود سيخلق اضطراباً اقتصادياً، خاصة على دول اوربا الغربية التي يعاني اقتصادها من تراجع كبير، وبالتالي قد تكون اكثر استعداداً لصفقة مع صدام حسين تضمن عودة تدفق النفط العربي مقابل مراجعة قرارات الامم المتحدة.

2- عرقلة مسيرة السلام الاسرائيلي-العربي: وذلك بالتلويح بالقدرة على عرقلة هذه المسيرة من خلال استقطاب القوى الفلسطينية الرافضة (اخبار عن بدء انتقال مكاتب بعض هذه المنظمات الي بغداد)، وفتح العراق الى "الاصولية" الاسلامية عبر تحالف مع السودان وايران وليبيا او مع بعضها.

3- القيام بمغامرة عسكرية باتجاه احتلال المواقع النفطية السعودية في الظهران القريبة من الحدود العراقية، ليتم مقايضتها بفك الحصار الاقتصادي على العراق.

المعارضة العراقية وفقدان المبادرة

ان المعارضة العراقية تفتقد القدرة على المبادرة عراقيا و عربيا ودوليا. وستبقى تلهث وراء الاحداث اسيرة تبعيتها للارادة الاقليمية او الدولية، حيث اصبحت كورقة بيد تلك الاطراف الاقليمية او الدولية.

الحركة القومية الكردية تعيش مأساة الاختناق باحضان الغرب، الذي شل ارادتها من خلال احتوائها بالحماية الجوية دون توفير مسببات العيش والنمو والمقاومة. تجد تركيا (التي تنطلق من قواعدها طائرات التحالف لحماية اكراد العراق) ان من حقها ضرب ذات الاكراد بحجة القضاء على عناصر حزب العمال الكردستاني التركي، كما لجأت ايران لذات الاسلوب في شن الهجمات العسكرية داخل كردستان العراق، وتحت وطئة الضائقة المالية استطاعت تجنيد العديد من الاكراد العراقيين باسم الاسلام وغيره من الشعارات لتكرس التدخل الايراني، بما يزهق نمو الحركة القومية الكردية من خلال سياسية اقتتال الاخوة. وضع كردستان العراق الحالي لم يعد يهدد صدام حسين واي محاولة امريكية لاستخدام اكراد العراق للسيطرة المباشرة على بغداد ستعرض امريكا لمواجهة مع تركيا وايران، اضافة الى اثارة مخاوف حرب اهلية بين العرب والاكراد.

اذا لم يكن بمقدور الاكراد لجم صدام حسين ومنعه من المغامرة خارج حدود العراق، فالامر ينطبق كذلك وبحدة على التيار الاسلامي الشيعي، فامريكا تخشى اتساع النفوذ الشيعي الايراني بقدر خوفها من صدام حسين.

سياسة الانتظار الامريكية

اتسمت السياسية الامريكية في عهد كلينتون بالاكتفاء بآلية قرارات الامم المتحدة في التعامل مع العراق. بأمل ان تكون عصا الحصار والعقوبات كافية لتركيع النظام العراقي ولكن دون وضوح في الهدف. فالسؤال الذي يطرح نفسه بحدة هو :

ما هو هدف السياسية الامريكية تجاه صدام حسين؟

هل هي بصدد الاطاحة به، وفي هذه الحالة ما هو البديل المطروح وكيف سيتم هذا؟ بانقلاب عسكري، ثورة شعبية ؟ وكلاهما امر غير مضمون التحقيق في الامد المنظور.

ام ان هدف السياسة الامريكية هو اضعاف نظام صدام دون اسقاطه من اجل فرض شروط معينة. ومرة اخرى يتساءل المراقب ياترى ما هي الشروط المطلوبة اضافة الى تدمير الاسلحة ذات الدمار الشامل والاعتراف بالحدود مع الكويت؟

هل الديمقراطية البرلمانية الحرة هي ما تريد امريكا؟ ام ستقبل بحل وسط يبقي على النظام مع تغيرات ترضي بعض الامال الكردية وشيء من شكليات "حقوق الانسان" المظهرية.

قد يكون من المناسب لواشنطن الانتظار وعدم استعجال التغيير الى حين ظهور بديل عراقي مقبول شعبيا واقليميا مع ضمان بقاء نظام صدام حسين ضعيف. ان الورقة الفاعلة في يد صدام حسين هي في فرض اتخاذ القرار على واشنطن من خلال التهديد، فهل تنجح ؟ }

(الملف العراقي، العدد 26 - شباط 1994)